أدبُ المرأة الجزائرية
بين إجحاف الدَّاخل، وإنصاف الآخر

د/ صلاح الدين باوية
جامعة جيجل

أولا:إرهاصات أدبية للمرأة الجزائرية

إنَّ المتتبع لمسار إسهامات المرأة الجزائرية عبر جلّ المراحل التاريخية، يجدها أنها"كانت تباشر عملها في الزاوية كمرابطة، وفي البيت كأمّ لأبناء يترددون على المدارس، ولدينا أمثلة كثيرة على وجودها متعلّمة: تحفظ كلّ القرآن الكريم أو جزءًا منه،وتنسخ الكتب وتعلّم الفقه وأصول الدِّين لزميلاتها(...) ولكن حجم مشاركتها كان أقلّ ممَّا نتوقّع، فنحن لا نجد كتابًا ألفتهُ امرأة، ولا مجلسًا أدبيًّا(صالون)كانت تتصدرهُ امرأة، ولا مناظرة علمية شاركت فيها"(1).

ولكن رغم هذا نجد بعض القبائل قد أعلت شأن المرأة،وقدَّمتها على الرجل مثلما هو الشأن عند التَّوارق،فإنَّ "مكانة المرأة عند التوارق الذين تميزوا في معاملتها عن كل القبائل الأخرى في السّفور والانتساب إلى الأمّ وليس للأب،وحجاب الرِّجال باللِّثام الذي استمرّ إلى ما بعد دولة المرابطين،بل ما يزال منتشرا بين قبيلة لمتونة،فالتوارق بنوا نظامهم على الأمومة حيث تكون المرأة هي أساس الأسرة والمرجع للمجتمع،بينما بنت القبائل الأخرى نظامها على الأبوة"(2).

ولقد بدأت المرأة بعد الفتح الإسلامي للمنطقة، تظهر إلى الوجود بصورة جليَّة، ذلك أن الإسلام قد ساوى بين المرأة والرجل في الحقوق، وفي الواجبات،فهذه رقية البجائية في القرن التاسع الهجري- على سبيل المثال لا الحصر- تعتبر من النِّساء المهاجرات"...ومن حظِّها أنها عاشت في المشرق إلى وفاتها،وهي بنت الشيخ عبد القوي بن محمد البجائي الأصل المكي الإقامة،ورقية هي أخت أبي الخير أحمد،حسبما أورد السخاوي،ويهمنا منها أيضًا أنها وصلت حدًّا من العلم أن أصبحت تمنح الإجازات للعلماء كما كانت تجاز"(3).

وإلى جانب رقية البجائية،نجد عائشة البجائية والتي"تسمِّيها بعض المصادر الشَّاعرة البجائية،وقد اشتهرت بأبيات هجت بها من جاء يخطبها ورأته ليس أهلاً لها.وليس هناك ترجمة لحياتها الأدبية والعلمية،ولا يشكل شعرها مجموعًا أو ديوانًا للحكم عليها به وعليه بها"(4).

وأكبر الظَّن هي"عائشة العمَّارية،من أشهر الشَّاعرات النِّساء في دولة بني حماد،لها شعر رقيق إلى جانب أهاجيها اللاذعة كقولها في رجل تقدم لخطبتها:

عَذيريَّ مِنْ عَاشقٍ أصْلَعِ قَبيحِ ٱلإشَـــارةِ وٱلمنْزعِ

برأْسٍ حُـويجٍ إلى صَفْعةٍ ووجْهٍ حُـويجٍ إلى بُـرْقُعِ(5).

وفي مرحلة ما قبل الثَّورة التَّحريرية، ظهر الإبداع الأدبي الشَّفوي على أكثر من نطاق،في شكل أغاني شعبية وقصائد وألغاز ومرويات تقولها المرأة انطلاقا من بيئتها المحلية البسيطة في حاجات خاصة بها مثل أغاني الحصاد،والأعراس،وهناك إبداعات وأغاني خاصة موجهة للأطفال تتمحور حول"أهزوجة الأطفال وأشعار الترقيص،والسبوع،والختان،والهدهدة،وكل ما يلقى للأطفال حين إتمامهم حفظ القرآن الكريم في الكتاتيب،أو في أي مناسبة من المناسبات،وتكمن أهمية هذا القسم في أنه الوسيلة الأساسية التي تدرب الأم بواسطته الطفل على استعمال اللغة"(6).

حيث تنقل لنا الذاكرة الجماعية بعضا منها،بالرغم من عدم معرفة صاحبة هذه الإبداعات الشفوية،في مثل هدهدة الأم لفلذة كبدها الرضيع قائلة له،في حنان وحنو،وبصوت خافت:

نَنِّي نَنِّي يَـا بَـشَّـــةْ واشَ أنْطيْبُو في لعْشَاءْ؟

نَديْرُوا جَارِي بالدَّبْشةْ وَيْجِـــي بَابَا يتْعَشَّى

وعندما يحلّ يوم الختان،تنشد الأم بعضًا من أغانيها،حول الموضوع ذاته،محاولة منها توجيه الخطاب إلى الخاتن أو المطهر كي يحسن القيام بعملية الختان من ناحية،ومن ناحية أخرى فهي تحاول تخفيف بعض ما يكابده ابنها من آلام،قائلة:

طهَّـرْ يَا لَمْطهَّرْ يَـرْحمْ وَالْـدِيكْ

لاَ تجرحْ وَلِيدي لاَ نَغْضبْ عليكْ(7).

ونظرًا لكون مرحلة ما قبل الثَّورة التَّحريرية-في الغالب الأعم- كانت تروى فيها الإبداعات الأدبية مشافهة، بنسب أكثر من التدوين، فقد ضاعت كثير من المرويات الشِّعرية تحديدًا، لكن "من حسن حظّنا أن احتفظت لنا مصادر ثقافتنا المدوّنة بنصوص شعرية شعبيَّة تعود إلى العصور الوسطى، وبخاصة منها ما تعلَّق بمختلف الحروب التي كانت تفرض على أجدادنا في حوض البحر المتوسط، أكانت تلك الحروب مع الأسبان، أو الدانمارك، أو أي أسطول، أو غاز آخر، ليكون الحضور الموثّق مذهلاً مع الغزو الفرنسي المعروف بحيث وجدنا تسجيل ملاحم شعبيَّة راقية(8).

ويكاد يجمع المؤرخون الجزائريون، على أن أقدم نص من الشّعر الملحون وصل إلينا يعود إلى القرن السّادس عشر،وهي " قصيدة مازاغران"التي تؤرخ لاحتلال الجزائر العاصمة.

ولا يخفى ما للمرأة الجزائرية من أدوار بطولية هامة في صدِّ العدوان الغاشم، وإن الباحث ليقف مذهولا أمام صنائعها عبر التاريخ،ولربما اختلط عليه الحابل بالنَّابل في كثيرٍ من الأحايين في كون هذه المرأة أهي حقيقة أم أسطورة وضرب من الخيال؟

ولعلَّ من بين النِّساء الجزائريات اللَّواتي اشتهر ذكرهنَّ عبر التاريخ- على سبيل الذكر لا الحصر- نجد:"تين هينان في (القرن الرابع أو الخامس الميلادي)،الكاهنة (نهاية القرن السابع و بداية القرن الثامن الميلاديين)، جازية بني هلال (القرن الحادي عشر الميلادي)، أم هاني بنت رجب باي(نهاية القرن السابع عشر، بداية القرن الثامن عشر)، علجية بنت بوعزيز من الحنشة (القرن الثامن عشر الميلادي)، عايشوناش الجلابية (القرن التاسع عشر الميلادي)، والدة الأمير عبد القادر الجزائري، وزوجته وأخته خديجة، للا فاطمة نسومر، الجميلات الثلاث...الخ والقائمة تطول... (*)

لكن ما يؤسف له في هذه المرحلة، هو قلَّة التَّدوين، نظرًا لتفشِّي الأميَّة من ناحية، ولربما قلة الاهتمام بالشعر الملحون والموروثات الشعبية من ناحية أخرى، ولولا كتابات بعض المستشرقين- على اختلاف نواياها- ولولا كتابات بعض أبناء الوطن الجزائري، والمغرب العربي على غرار ما كتبه العلامة محمد بن أبي شنب، لضاع كثير منها، وفي هذا الشأن نريد أن نشير إلى كتاب سونيك:(ديوان المغرب في أقوال شمال إفريقيا)،فقد نقل لنا هذا الكتاب كثيرًا من النُّصوص الإبداعية، بما فيها أشعار النِّساء، حيث إن الباحث: "لم ينس جانبا مهمًّا يتصل بتراثنا الشَّعبي الأصيل وهو الجانب الذي يتمثل في الأشعار والأغاني التي تتردد في مختلف المناسبات، وهذه الأغاني جلُّها مجهولة القائل لكنَّها هامة لأنها تتعلق بعاداتنا وتقاليدنا، ودوَّن الباحث الأغاني التي تنشد في الأعراس،في الختانة،في ربط الحنَّاء للعروس،أغاني الطّفل قبل النّوم وعند ولادة الذّكر،ودوّن بعض أغاني العمل

كتلك الأشعار التي تغنى أثناء الحرث والزرع وتلقيح النَّخل، وما يغنِّيه البحرية أثناء الصَّيد، كما دون الكثير من أشعار النِّساء في رثاء أزواجهنَّ، أو أولادهنَّ"(9).

وهكذا باندلاع الثّورة التّحريرية، اكتسب الأدب الجزائري صفة جديدة، ألا وهي صفة التّحدي والمقاومة فأصبحت الكلمة رصاصة تطلق في وجه العدو.

ثانيًا:إبداع المرأة الجزائرية إبّان الثّورة التّحريريّة:

مثلما عرفت مرحلة الثّورة التّحريريّة مشاركة المرأة،عن طريق التّجنيد وحمل السّلاح والقيام بالأعمال الفدائية،إلى جانب الطّبخ،ومداواة الجرحى،وحفر الخنادق(الكازمات)لتخبئة السّلاح والمجاهدين وغيرها من جلائل الأعمال

فقد شاركت المرأة الجزائرية أيضا عن طريق تحفيز المجاهدين بالأغنية،والقصيدة،والشعر الملحون على وجه التحديد،"ولعل أهم أنواع الكلمة التي لعبت الدور البالغ في حرب التحرير الجزائرية بدون منازع هي الأغنية الشعبية،أو ما يعرف بالشّعر الشّعبي الثّوري"(10).

ولذا كانت المرأة الجزائرية على مستوى الشّهادة التّاريخية،فكثيرًا ما تغنّت ببطولات المجاهدين،وخلّدت مآثرَ كثيرٍ من المعارك الضّارية،التي جرت عبر مختلف أنحاء الوطن الجزائري هنا وهناك،بل نجد في بعض ما جادت به المرأة هجاءً لبعض الشخصيات الفرنسية مثل(ديقول)وغيره. فأصبح لكلّ "قرية من قرى الجزائر أغان وأناشيد، وأشعار شعبية خاصة بها فضلا عن الأناشيد والأغاني والأشعار الوطنية المشتركة بفعل الذيوع والانتشار"(11).

ومن منا لا يحفظ ولو بعض المقاطع من نشيد "من جبالنا"،أو"حيُّو الشَّمال"،والذي مطلعه:

حيُّوا الشَّمال يا شبابْ حيُّوا الشَّمال الإفْريقي

ولعلّ من بين النِّساء اللَّواتي اشتهرنَّ بتمجيدهنَّ للثَّورة الجزائرية التَّحريرية،عن طريق الأغنية الشعبية، الفنانة (بقّار حدَّة).

وللتدليل أكثر على مدى مساهمة المرأة بإبداعاتها في الثورة التحريرية،نسوق هذا المقطع من الشعر الملحون قالته امرأة تدعى:(فاطمة)من لغروس ولاية بسكرة،في رثاء الشهيد غزالي والذي كان قائدا عسكريا بناحية

بسكرة، واستشهد بالغروس،حيث قالت:

مَعْتَــاهْ أنْهَــارْ على قَــــــزَّالي طَايَـحْ فِي الْبِيـرْ والْبَارُودْ يَشَالي
مَعْتَاهْ أنْهارْ حَكْمُوهُمْ فِي خَمْسَةْ لاَحُوهُمْ فِي الْبِيرْ وزَادُو عليْهم عَرْسَةْ
كِيْ جَـاهْ أحْمَـدْ على الْبِيـرْ يَكلَّمْ قَالُــوا: يَا قَــزَّالي اخْـرجْ سَلَّمْ

أَنَا رنْدِيتْ وَانْتَ اخْرُجْ رَنْدِي، قالُوا:جُاهدْ نضْربْ عَنْ دِينِي وسْلاحِي عنْدِي(*)

ومن الملفت للنظر"ففي الوقت الذي لا نكاد نجد فيه امرأة كتبت شعرًا بالعربية في الفترة الثَّورية، وجدنا عددًا من النِّساء كتبْنَ الشعر بالفرنسية،وهي ظاهرة تستحقُّ الدِّراسة من النقاد وعلماء الاجتماع،وإليك بعض الأسماء:ليلى الجبالي،وآسيا جبار،ومليكة أو الحسين،وجميلة دبيش،وزهرة زراري"(12).

ثالثا:رائدات الإبداع الأدبي الجزائري المعاصر:(مرحلة ما بعد الاستقلال)

بعد سنوات من الاستقلال برز الصّوت النِّسائي جليًّا وواضحًا في الأدب الجزائري المعاصر،ولعل من بين الأديبات اللواتي ذاع صيتهنَّ في الساحة الثقافية،زليخة السعودي،زهور ونيسي،جميلة زنير،زينب الأعوج،أحلام مستغانمي....وغيرهنَّ.

حيث يذهب الباحث يوسف وغليسي إلى أن"الحدّ الزَّمني التي بدأت فيه الكتابة النسائية في الجزائر على المستوى السردي بسنة 1967،مع الأديبة زهور ونيسي،في المجموعة القصصية"الرَّصيف النَّائم"،وعلى المستوى الشعري مع الشاعرة مبروكة بوساحة في ديوان"براعم"(13).

والحقيقة إنَّ هذا الحكم يكاد لا يختلف عليه اثنان فقد"ظهرت مجموعة زهور ونيسي الأولى(الرصيف النائم)عام 1967،وكانت المجموعة القصصية الأولى لأديبة جزائرية تكتب باللغة العربية،أمَّا قصص هذه المجموعة،فإنها صورة عن واقع المؤلفة،بل لنقل إنها الجزائر أيام ثورتها التَّحريرية،ولذا جاءت معبِّرة عمَّا لاقاه الشَّعب الجزائري بصموده وكبريائه من أجل نصرة قضيته"(14).

ولذا فقد حازت الأديبة زهور ونيسي السَّبق الزَّمني والتَّاريخي بظهور مجموعتها،"وباعتبار أن السيدة زهور ونيسي أديبة جزائرية ساهمت بقلمها في الدفاع عن المرأة الجزائرية المناضلة،وأسمعت صوتها للشرق العربي،وكان أدبها مرآة صادقة عن إحساسها الداخلي بالأزمة كامرأة بالدرجة الأولى"(15).

أما فيما يخص الشَّاعرة مبروكة بوساحة،فهي أيضًا تعتبر"أول اسم قدَّمه الشَّاعر محمد الأخضر السَّائحي ضمن قائمة المطبوعات النِّسائية،ولم تكن مقدمة الديوان الذي يحمل اسم (براعم) الصادر في عام 1969 عن الشركة الوطنية سواء إطراء،أو تشجيع"(16).

و إلى جانب الأديبات زهور ونيسي،ومبروكة بوساحة،نجد كذلك الأديبة زليخة السعودي،والتي للأسف"مع ندرة كتاباتها لسبب أو لآخر فقد نشرت لها أربع قصص قصيرة في مجلتي(أمال) ع.1، ع6،والفجر ع.1962/12/15"(17).

رابعًا:الأجناس الأدبية في إبداعات المرأة الجزائرية:

لقد اقتحمت المرأة الجزائرية مجالات الإبداع الأدبي من أبوابها الواسعة، حيث تسنى لها التجريب الفني في مختلف الأجناس الأدبية، إذ نجدها قاصة، وروائية، وكاتبة مقال، وشاعرة...الخ.بل نجد حتى بعض التجارب في الكتابات المسرحية على غرار ما قامت به الأديبة:(زليخة السعودي).

أ– في مجال القصَّة:

هناك إسهامات معتبرة للمرأة الجزائرية في مجال القصة، بنوعيها الطويلة والقصيرة، وليس من قبيل التعداد، حيث نجد – على سبيل المثال لا الحصر– الأديبات: "زهور ونيسي:ومجموعتها القصصية(الرصيف النائم1967م،على الشاطئ الآخر1979م)زليخة السعودي:والتي نشرت بعض قصصها في مجلة(آمال،ع.1، 1969م،ع.6، 1970م)جميلة زنير:ومن بين مجموعاتها القصصية (دائرة الحلم والعواصف1983م، أسوار المدينة2008م)، بلال (عمّارية– أم سهام: الرصيف البيروتي1986م)وهيبة جموعي:(ثلاثية الوجع ثلاثية الوهج 2007م)،رندة مكاوي (وكتبتني القصة 2015م)، عزيزة بوقاعة (مزاج المرايا2016م).

بالإضافة إلى كاتبات عديدات،من بينهنَّ:خيرة بغدود،ليلى بن سعد اليعقوبية،ربيعة جلطي،حفصة بودية،نورة سعدي،سعيدة هوارة،جميلة سفطاوي،ربيعة ملاتي،رحال بريزة،يتيم نوال....الخ.

إضافة إلى هذا الكم الهائل من مبدعات القصة، وإلى وقت غير بعيد،برز أيضًا حضور المرأة جليًّا في الأعمال القصصية،بكل بطولاتها وانكساراتها،ولذا"فإنَّ(بطولة) المرأة في القصة الجزائرية المعاصرة تبقى ذات نكهة خاصة

لأمر يتعلق بالوضع الاجتماعي،والتطور الذي اعترى هذا الوضع خلال الثلاثين أو العشرين سنة الأخيرة،من هنا تأتي الخصوصية التي تحدد سمات كثيرة في المرأة وعلاقتها بالمحيط،ووضعها

الاجتماعي،ونظرة المجتمع لهذا الوضع،ويجد هذا تحديدا له في الأعمال القصصية المبكرة، والأعمال القصصية اللاحقة(18).

ب– في مجال الرّواية:

إلى جانب كتابة المرأة الجزائرية للقصَّة بنوعيها الطَّويلة والقصيرة،فقد كتبت أيضًا جنس الرّواية باقتدار،ويجب الإشارة هنا إلى أن كثيرات من المبدعات يجمعن في كتابتهنَّ السّردية،بين القصَّة والرواية.

ولعلَّ من بين الرّوائيات الجزائريات:"زهور ونيسي: (يوميَّات مُدرسة حرَّة 1979م)، أحلام مستغانمي: (ذاكرة الجسد،عابر سرير،فوضى الحواس،الأسود يليق بك....)،شهرزاد زاغز: (بيت من جماجم2000م)، فضيلة الفاروق: (تاء الخجل،مزاج مراهقة1999م، اكتشاف الشهوة1999م، أقاليم الخوف2010م)، مُنجية إبراهيم: (من بعيد.. أجمل2011م)، زكية علال:(عائد إلى قبري2015م)، فاطمة العقون...الخ.

"وقد ارتفع عدد الإصدارات الروائية من جديد، ابتداء من مطلع القرن الحالي(الواحد والعشرين) ليبلغ في السنوات الثلاث الأخيرة ما صدر منها – حسب تقديري- في سنوات الثمانينيات بأكملها"(19).

ومما لا شك فيه أن هذا التزايد والاهتمام بجنس الرواية يعود إلى عدة أسباب ومحفزات،وحسب رأي الباحث الجزائري أحمد منور:"هناك ظروف وعوامل عديدة كان لها الأثر في ازدياد عدد الروايات طيلة الثلاثين سنة الماضية،منها الزيادة المطردة في عدد الكتاب بسبب انتشار التعليم وتطور وسائل النشر،ومساهمة الأجيال المتلاحقة منذ عقد السبعينيات إلى اليوم في الكتابة الروائية،يضاف إلى ذلك ما تلقاه الرواية من إغراءات كثيرة مثل المسابقات الأدبية التي تجري على المستوى الوطني وفي البلاد العربية الأخرى،ومثل الشهرة التي حققتها أسماء عديدة بفضل الرواية،سواء في الجزائر أو خارج الجزائر،ولم تحققها عن طريق القصة أو الشعر مثلا"(20).

هذه بعض الأسباب الموضوعية التي جعلت الرواية تبرز إلى الوجود وتنتشر بسرعة من وجهة نظر الأديب أحمد منور.

جـ– في مجال الشِّعر:

لقد اقتحمت المرأة الجزائرية مجال الشِّعر بنوعيه الفصيح والملحون،ولها فيه صولات وجولات،كيف لا.وقد سمِّي الشِّعر شعرًا ،كونه ملتصقًا أشدَّ الالتصاق بالشّعور والعواطف الإنسانية.والمرأة هي خزَّان العواطف بفطرتها التي جبلت عليها، إذ نعثر على أسماء عديدة في كلا النّوعين،ففي الشِّعر الفصيح نعثر على مثل:"مبروكة بوساحة في ديوانها(براعم1969م)،أحلام مستغانمي: (على مرفأ الأيام1972م، الكتابة في لحظة عري1976م) زينب لعوج: (يا أنت من منا يكره الشمس1980م)، نورة سعدي: (جزيرة حلم1983م).

إلى جانب عديدات منهنَّ:ربيعة جلطي،رتيبة نويوات،مي غول،زهرة بلعاليا،حليمة قطاي،وسيلة بوسيس، نصيرة محمدي،نوارة لحرش،الخنساء زياية،والقائمة طويلة....الخ.

أما فارسات الشِّعر الملحون،فهنَّ كثيرات أيضًا،من بينهنَّ:(مي غول،زينب لعوج،جميلة حسنات،سامية تلي،نوارة ربيعة،لمياء فريح،أمباركة دهنون،عبد المولى مولخير،فوزية لرادي،كريمة مختاري،عائشة مجاهد....الخ). كل هذا مما يؤكد مدى غنى الساحة الثقافية الجزائرية بالتجارب الشعرية للنواعم.

د– في مجال المقال:

لقد كتبت المرأة الجزائرية أيضا،فن المقال بنوعيه:الصحفي،والأدبي،ولعلَّ من بين من كتبن لمقال نجد الأديبات: (زهور ونيسي،زينب الإبراهيمي،ليلى بن ذياب،خديجة لصفر خيار.....وغيرهن.)

هـ– في مجال المسرح:

من بين اللَّواتي جرَّبن كتابة نصوص مسرحية،نجد الأديبة زليخة السعودي رحمها الله،وقد جاء في التعريف بها في مجلة المخبر التي تصدر عن جامعة بسكرة،أنها:"أديبة جزائرية حديثة ولدت في 20 ديسمبر 1943 بإحدى قرى ولاية خنشلة،وتوفيت في 22 نوفمبر 1972،تنوع أدبها من القصة القصيرة،إلى المقالات والخواطر،إلى نصوص مسرحية،إلى رسائل،جمعها الأستاذ شريبط أحمد شريبط ونشرها في كتاب بعنوان الآثار الأدبية الكاملة لزوليخا سعودي"(21).ومن ثمة فللأديبة زوليخا السعودي نصوص مسرحية،وإن هي لم يشار إليها إلا من طرف الباحث المجتهد شريبط أحمد شريبط،والذي اهتم بآثار هذه الأديبة،ولولا مجهوداته التي يشكر عليها،لبقيت هذه الأديبة نسيًا منسيًا.

خامسا:إبداعات المرأة الجزائرية، وآليات النَّقد:

لم يضع النَّقد الجزائري المعاصر الإسهامات الأدبية للمرأة الجزائرية في الحسبان،ولم يولها الاهتمام اللائق بإبداعاتها،حيث لم يخصّص لها إلاّ بعض المؤلّفات التي تعدّ على الأصابع،وبعض الالتفاتات الشَّحيحة من حين لآخر،ولعلَّ أهم الدّراسات النَّقدية الصادرة،والتي حاولت أن تلتفت إلى أدب المرأة وإسهاماتها ما يلي:

أ- "الصّوت النِّسائي في الأدب الجزائري المعاصر" للباحث السّوري أحمد دوغان

صدر هذا الكتاب سنة 1982،عن سلسلة أدبية تصدرها مجلة آمال في عددها الرَّابع، ويعد هذا الكتاب أول عمل نقدي أكاديمي اهتمّ بالإسهامات الأدبية للمرأة الجزائرية، متوقفًا عند أجناس أدبية مختلفة من رواية،وقصة،ومقال،وشعر،ولصاحبه فضل السَّبق في عمله هذا، وإن كان قد اهتم في كتابه هذا بجمع المادة الأدبية، والتركيز في كثير من الأحيان على المواضيع والأحداث أكثر، من محاولة تبيان أهم الخصائص الفنية التي تتميّز بها هذه الإبداعات.

وبعد قرابة العشرين سنة من إصدار هذا الكتاب، الذي كان جامعًا لبعض الأصوات النِّسائية في الأدب الجزائري، صدر كتاب آخر يكمن اختلافه في تركيزه على أديبة بعينها، وهي الأديبة زوليخا السّعودي.

ب- "زوليخا السّعودي، الآثار الأدبية الكاملة"، جمع وتقديم الباحث شريبط أحمد شريبط.

صدر هذا الكتاب سنة2001، ضمن سلسلة ذاكرة الأدب الجزائري، بتدعيم من الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها التابع لوزارة الاتصال والثقافة.

يعتبر هذا الكتاب التفاتة طيِّبة من الباحث لأديبة جزائرية متميِّزة تعتبر من رائدات الأدب النِّسوي الجزائري،إلاَّ أنها فارقت الحياة في يوم 22 نوفمبر 1972،وللأسف لم تطبع أعمالها وبقيت متناثرة هنا وهناك عبر الجرائد والمجلات،فحمل الباحث على عاتقه جمع وتقديم هذه الآثار من قصص قصيرة ومقالات وخواطر ونصوص مسرحية ورسائل.

ومنه فإنَّ هذا الكتاب قيمة مضافة للمكتبة الجزائرية،فلولاه لبقيت الأديبة زليخا السّعودي مغمورة،وفي طي النسيان.

جـ- "الأصوات النّسوية في القصيدة الشَّعبية الجزائرية" جمع وتصنيف توفيق ومان، وقد صدر هذا الكتاب سنة 2007م، عن رابطة الأدب الشَّعبي التابعة لاتحاد الكتاب الجزائريين.

هذا الكتاب هو عبارة أيضًا عن جمع وتصنيف،ارتأى فيه الشاعر توفيق ومان،وهو الذي يشغل منصب:(رئيس الرابطة الولائية للأدب الشعبي)، إلا أن يجمع فيه لكلِّ شاعرة قصيدة أو اثنين،دون تقديم نبذة وجيزة عن الشَّاعرات،والتعريف بهنَّ وقد جمع فيه نصوص لـ:(14) شاعرة.

ولقد تصدر هذا الكتاب بمداخلة للدكتور العربي دحو موسومة بـ:(القصيدة الشعبية في الجزائر النشأة والتشكيل).والكتاب في مجمله انبثق عن مهرجان للشعر النسوي عقد بالمكتبة الوطنية أيام 28 فيفري إلى 02 مارس 2007. والكتاب لفتة إلى فارسات الشِّعر الملحون بالجزائر.

د- "النَّص الشِّعري النِّسوي العربي في الجزائر دراسة في بنية الخطاب" للباحث ناصر معماش،صدر هذا الكتاب سنة 2007 م،عن دار دحلب،بالجزائر العاصمة.

نلاحظ في هذا الكتاب تطور الرُّؤية إلى أدب المرأة بالجزائر،فبعد أن كانت الأعمال السابقة عبارة عن مجرد جمع وتوثيق،أتى هذا الكتاب ليقف عند بنية الخطاب تحديدا كخاصية فنِّية،وفي هذا تحوَّل من الجمع والتوثيق،إلى محاولة رصد أهم الخصائص الفنِّية للخطاب في شعر المرأة الجزائرية،وقد درس الباحث في كتابه هذا (13) ديوانًا شعريًّا،مركزا بالدرجة الأولى على المواضيع والقضايا والبنية الفنِّية والعروضية.

هـ-"خطاب التأنيث دراسة في الشِّعر النِّسوي الجزائري ومعجم أعلامه" للباحث يوسف وغليسي،صدر هذا الكتاب سنة 2008م،عن منشورات محافظة المهرجان الثقافي الوطني للشِّعر النّسوي بقسنطينة.

يعتبر هذا الكتاب من أنضج الكتب السّابقة على المستوى النَّقدي وأشملها، حيث جاء "خطاب التأنيث ليرد الأمور إلى نصابها ويكشف الفاجعة والمأساة التي رافقت المرأة الجزائرية المبدعة،وخاصة عند جيل الاستقلال، فكان الكتاب معجمًا نقديًّا يختلف كليًّا عن عمل النَّاقد السوري أحمد دوغان" الأدب النسوي في الجزائر يدرس(*) الحالة الشعرية المفردة باقتضاب مع معلومات تاريخية كافية على هامش كلّ سيرة شعرية" (22).

أما من حيث شمولية هذا الكتاب الذي ارتأى صاحبه أن يكون معجمًا،فقد"درس النَّاقد 87 شاعرة،و73 ديوانًا شعريًّا،على خلاف الناقد ناصر معماش الذي درس 13 ديوانا عبر مواضيعها وقضاياها وبنيتها الفنية والعروضية"(23).

ورغم الضّجة الكبرى والزّوبعة الهائلة التي أثارها هذا الكتاب عبر مختلف وسائل الإعلام،كالجرائد والمجلات،ومواقع الأنترنيت، ورغم ما فيه من بعض النقائص والسلبيات، إلا أنه خطوة مهمة جدا،في مجال الاهتمام بأدب المرأة الجزائرية.

سادسًا– إبداعات المرأة الجزائرية، وإجحاف الداخل:

لقد عانت المرأة الجزائرية المبدعة في مجال الأدب وما تزال، إجحافًا كبيرًا من طرف ذوي القربى من الدَّاخل. ولقد تعددت أساليب هذا الإجحاف الممارس في حقِّها، عبر فترات تاريخية متفاوتة،ومن تمظهرات هذا الإجحاف أن "في عام 1939 أعلن ناد رياضي قسنطيني في جريدة البصائر عن إجراء مسابقة للقصة القصيرة،وطلب من المتسابقين أن لا يضمنوا قصصهم أي شخصية نسائية،بعد هذا الحدث بعشر سنوات

ظهرت في نفس الجريدة أكثر من مقالة تدعو إلى تعليم الفتاة الجزائرية كخطوة ينبغي القيام بها في سبيل تطوير الجزائر وتقدمها"(24).هذا ويمكن أن نورد تمظهرات هذا الإجحاف في نقاط أهمها:

1. عدم التفات النَّقد الجزائري المعاصر إلى أدب المرأة،عن طريق كتب ودراسات مخصصة لها،حيث لاحظنا افتقار المكتبة الجزائرية إلى الكتب النقدية المخصصة لأدب المرأة،إذ لم نجد في هذا المجال ما عدا (05) كتب التي ألمحنا إليها سابقا.
2. تغييِّب المرأة في الكتب التي تناولت الأدب الجزائري،فمن "الملاحظ لدى الباحث أن الكتب التي تناولت الأدب الجزائري المعاصر لم تذكر اسم شاعرة أو أديبة سوى "زهور ونيسي"،وكان ذلك مرورا عابرا،وإن كانت هناك كتب تناولت الأدب الجزائري بالفرنسية وتعرضت للأديبات الجزائريات اللواتي يكتبن بالفرنسية،وهنَّ لسن أكثر ممن كتبنّ بالعربية"(25).بل إنَّ هذا التغيّيب طال حتى النصوص الإبداعية للفئة الرجالية،من ذلك وفيما مضى"أن كتاب القصة القصيرة،نادرًا ما يذكرون المرأة في قصصهم،وهم عندما يذكرونها،يعطونها صورة باهتة بحيث لا يشعر القارئ بوجودها(26).

بل قد يسئ بعض الأدباء إلى شعور المرأة في كتاباتهم،سواء عن قصد أو دون قصد،إذ يتحدث مثلا:"رشيد بوجدرة عن مشكل الزواج،وعن اغتصاب المرأة بصك شرعي،دون مراعاة لشعورها وإنسانيتها وأنوثتها،ويتكلم عما يمارس معها يوم الزفاف من وحشية وحيوانية،حتى يصيبها النزف والدوران.وهناك من تموت من جراء تلك الممارسة الحيوانية،من جراء النزف،خصوصا إذا كانت في قرية نائية ليس فيها لا طبيب ولا مستشفى"(27).

3. تهجم بعض النقاد على أدب المرأة الجزائرية،وخير مثال على هذا ما حدث مع الناقد يوسف وغليسي في كتابه:"خطاب التأنيث"،مما دفع صديقه الباحث محمد الصالح خرفي إلى التساؤل قائلا:" لكن التساؤل الذي يطرح وأنت تقرأ الكتاب:أين النّقد النِّسائي في الكتاب؟ وهو يتهجّم عليهنَّ في مواقع عديدة،ويفضح أشياء كثيرة، وأي نقد نسائي هذا الذي يمارسه الرجل الناقد على النص الشعري النسوي،ويركز على أسماء بعينها،أحلام مستغانمي،حبيبة محمدي،فضيلة زياية الخنساء،ربيعة جلطي،مسعودة لعريط غيوم،ويعمل اليد النقدية فيها،بينما يغض الطرف عن بعض الأسماء"(28).
4. تغييب النصوص الأدبية للمرأة الجزائرية من المقررات الدراسية لوزارة التربية والتعليم.
5. عدم استثمار إبداعات المرأة الجزائرية من طرف وسائل الاتصال والإعلام،(الإذاعات،التلفزة،والسينما) لاسيما في مجال القصة والرواية،وتحويلهما إلى صناعة سينمائية.
6. عدم ترسيم مهرجانات وملتقيات خاصة بالإبداعات الأدبية للمرأة،وفتح مجال المسابقات للتحفيز والتشجيع على الكتابة،هذا وقد سجلنا مهرجانًا وحيدًا في السنوات الأخيرة،خاص بأدب المرأة،ألا وهو "مهرجان الشِّعر النِّسوي" بقسنطينة الذي ينم عن بادرة صحية.
7. عدم وجود صحافة ثقافية متخصصة في الجزائر ، تعنى بأدب المرأة من مجلات أكاديمية وجرائد وقنوات وحصص تلفزيونية.

8. تدليل حواجز العادات والتَّقاليد المتحجِّرة، والتي فرضت على المرأة التَّخفِّي،والنشر برموز وأسماء مستعارة حيث شكت مبدعات كثيرات همومهنَّ من هذا الجانب،فقد نُقل مثلا عن المبدعة:"(مريم يونس) في لقاء معها:(كانت دروبي في هذه المدينة الجميلة-جيجل- كلها أشواكًا وعقبات.كانت عذابًا واضطهادًا،خاصة عندما بدأت الكتابة،فقد غصت في دوامة من القيل والقال،لكنني لم أستسلم،قاومت في هدوء وما زلت إلى أن أنتصر لوجودي بين الأديبات الجزائريات إن شاء الله"(29).

وفي السِّياق نفسه تقول القاصة جميلة زنير ابنة مدينة جيجل كذلك:"نشأت في بيئة خانقة محاصرة،كل شيء فيها يبعث على الموت ويخلقه،ومع ذلك حفرت لنفسي دربا وسرت فيه بمفردي، رغم الأشواك والحصار والزيف،وانطلقت أعدو باتجاه النور يحدوني الأمل في أن أعانقه ولازلت أغدو مستنيرة به في رحلتي الأدبية المتواضعة"(30).

والظاهر أن مثل هذا الإجحاف وعدم الاعتراف والإنصاف من الداخل، قد لازم المرأة العربية بصفة عامة،منذ بدايات العصر الحديث، وإلاَّ كيف نفسِّر عنونة الشَّاعرة الفلسطينية"فدوى طوقان" لسيرتها الذاتية بـ: (رحلة جبلية رحلة صعبة)،فمن خلال هذا العنوان يظهر جليًّا أن رحلة هذه المرأة الشاعرة في مجال الأدب،هي رحلة جدّ شاقة وعسيرة،شبيهة بصعود الجبال،وقد نقلت أهم هذه الصّعوبات الجمَّة وأحداث تفاصيلها في ثنايا سيرتها.حيث إنَّ قصَّتها كما تقول:"هي قصّة كفاح البذرة مع الأرض الصّخرية الصَّلبة،إنها قصّة الكفاح مع العطش والصَّخر"(31).

سابعًا: إنصاف الآخر لإبداعات المرأة الجزائرية:

لقد نجحت المرأة الجزائرية في تحقيق ذاتها عن طريق الأدب، فبعدما لقيت إجحافا كبيرا، وعدم اعتراف فعلي بمواهبها من الداخل، ومن ذوي القربى، اختارت الهجرة الإرادية إلى بلدان الخارج.

ولا أدلّ هنا في هذا الأمر من رائدات الرِّواية الجديدة، على غرار أحلام مستغانمي، وفضيلة الفاروق، وكذلك الروائية آسيا جبار، والشاعرة حبيبة محمدي.

فأحلام مستغانمي بعدما أصدرت ديوانيين من الشِّعر:(على مرفأ الأيام 1972م، والكتابة في لحظة عري 1976م)،تحوَّلت إلى كتابة الرواية، فعندما التحقت للعيش ببيروت أسست لها دار نشر(منشورات أحلام مستغانمي، بيروت) وبالفعل لاقت أعمالها الرِّوائية نجاحًا ورواجًا منقطع

النظير في العالم العربي،وأصبحت "الحدث"في الأدب العربي المعاصر، بل حوّلت بعض أعماله إلى مسلسلات تلفزيونية على غرار روايتها:"ذاكرةالجسد".

و بالتالي أنصفها الآخر لا لشيء، إلاّ لأنها مبدعة جزائرية حقيقية وجدت بيئة ملائمة تحفز على الكتابة والإبداع، ومجالاً من الحرّية في بيروت،وعلى خطاها نجد الروائية فضيلة الفاروق،التي التحقت ببيروت أيضا،في التاسع من شهر أكتوبر سنة 1995م،واتخذتها مقرًا لإقامتها،وفي بيروت فتحت لها الدنيا ذراعيها،حيث عملت بالحقل الصحفي بجريدة الكفاح،ونشرت أعمالها"لحظة لاختلاس الحب سنة 1997،ومزاج مراهقة سنة 1999 بدار الفرابي ببيروت،ثم روايتها "تاء الخجل" عن دار رياض الريس.

في بيروت إذا أنصف الآخر المبدعة فضيلة الفاروق،حيث كانت بيروت المنطلق الحقيقي لها للذيوع في العالم العربي،وبعض بلدان أوروبا،شجعها ودعمها الشاعر الكبير والمسرحي(بول شاوول)،إلى جانب الشاعر

والكاتب (عماد العبد الله)، هذا الذي رشح روايتها تاء الخجل للنشر، والتي من خلالها اهتم بها نقاد كبار في العالم العربي على غرار:غادة السمان، والدكتور جابر عصفور، والروائي واسيني الأعرج.

وحصل أن ترجمت لها رواية "تاء الخجل" إلى اللغتين الفرنسية،والإسبانية،كما ترجمت مقاطع منها إلى اللغة الإيطالية،وقد أصدرت بعدها روايتين هما:"اكتشاف الشهوة سنة 2005،وأقاليم الخوف 2010.

أما المبدعة الثالثة فهي الأديبة "آسيا جبار" التي ولدت بشرشال باسم فاطمة الزهراء إيمالين في الرابع من أغسطس سنة 1936م،"كانت العطش أول رواية جلبت الشهرة لآسيا جبار،ونالت بها سمعة مبكرة وتقديرًا واستحسانًا بين المعاصرين"(32).

وبعد (العطش) كتبت آسيا جبار(المستعجلون)، ثم (فاقدو الصّبر) و(أطفال العالم الجديد)،و(أشعار من أجل جزائر سعيدة)،وأدركت الأديبة"وعرفت أن مكان الأدب المكتوب بالفرنسية هو باريس فرحلت إليها"(33).

فكانت فرنسا المنطلق الحقيقي لشهرتها الواسعة وذيوع أعمالها، حيث"صعدت آسيا جبار العالمية بعد الستينات، وحظيت بالجوائز الفرنسية وغيرها، وترجمت أعمالها إلى عدد من اللغات التي منها

الإنجليزية"(34). كما أنها انتخبت لعضوية الأكاديمية الفرنسية، ومنه تجاوزت بإبداعاتها المحلية إلى العالمية، ورُشِّحت إبداعاتها لأشهر المسابقات العالمية في مجال الأدب.

ولا يقتصر إنصاف الآخر للمرأة الجزائرية المبدعة في مجال الرِّواية فقط، بل في مجال الشِّعر أيضا، حيث وجدت الشاعرة حبيبة محمدي آفاقا جديدة لها من خلال مدينتي مصر ولبنان.

ثامنًا– خاتمة:

ختامًا نتساءل إلى متى يظل إجحاف الداخل للمرأة الجزائرية المبدعة،وممارسة أبشع صور وأنواع التَّهميش والجحود في حقِّها؟

في حين تجد هذه المرأة من الآخر الخارجي كل الإنصاف والاعتراف، والإكبار لمنجزاتها وإسهاماتها؟ أم أنَّ الكتابة ستظل في الجزائر معجزة ؟كما قال المؤرخ الأديب أبو القاسم سعد الله،وأنَّ هذا البلد لابدَّ أن تخرج منه كي تدخل إليه،على حدِّ تعبير الروائية أحلام مستغانمي؟.

الهوامش:

1. أبو القاسم سعد الله، حوارات، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2015، ص 60.
2. أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي (السلسلة الأولى من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري) ،ج.1، عالم المعرفة، الجزائر، ط.1 ،2015 ،ص62.
3. أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي (السلسلة الأولى من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري)،ج.2، عالم المعرفة، الجزائر، ط.1 ،2015 ،ص331، 332.
4. المرجع نفسه،522 .
5. مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، د.ط ،2002، هامش ص47
6. العيد جلولي، النَّص الشِّعري الموجَّه للأطفال في الجزائر، موفم للنشر، الجزائر، د.ط،2008،ص 127.
7. المرجع نفسه،ص 133.
8. العربي دحو،أشعار جزائرية من الديوان الشعبي العام،دار الهدى،عين مليلة،د.ط،2006،ص 04.

(*) لمزيد من الإطلاع ينظر مقالنا الموسوم بـ:"المرأة الجزائرية وأدوارها البطولية"،مجلة التبيين،ع.39،الصادرة عن الجمعية الثقافية الجاحظية،2015.

9. أحمد الأمين، صور مشرقة من الشِّعر الشَّعبي الجزائري دراسات ونماذج، دار الحكمة، الجزائر، د.ط، 2007،ص 302.

10. عبد العزيز الشويط،دور النَّشيد الشَّعبي الجزائري في معركة التّحرير الكبرى دراسة في الأهداف والمرامي، دار أمواج للنشر، سكيكدة،ط.1،نوفمبر 2005،ص 25.

11. المرجع نفسه،ص 25.

(*) روت لنا هذه الأبيات السيدة:عاشورة لطرش من بلدية فوغالة ولاية بسكرة،يوم 2015/11/05،على الساعة14:20

12. أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،ج.9،عالم المعرفة،الجزائر،طبعة خاصة،2011 ،ص192 ،193.

13. محمد الصالح خرفي، في عوالم النص دراسات نقدية، دار الأمير خالد، الجزائر، د.ط،2014،ص118.

14. أحمد دوغان،الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر،مجلة آمال،ع.4، تصدرها وزارة الثقافة،طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، الجزائر، ص 14.

15. عبد العالي رزاقي،تقديم لأحمد دوغان، الصّوت النِّسائي في الأدب الجزائري المعاصر،ص 03.

16. أحمد دوغان،الصّوت النِّسائي في الأدب الجزائري المعاصر،ص 115.

17. علي زغينة وآخرون،السّرد النِّسائي في الأدب الجزائري المعاصر،مجلة المخبر،أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، ع.1، جامعة محمد خيضر بسكرة،2004، ص 37.

18. عمر بن قينة،دراسات في القصة الجزائرية (القصيرة الطويلة) دار الأمة،الجزائر،د.ط،2012، ص105.

19. أحمد منور، ملامح أدبية دراسات في الرِّواية الجزائرية، دار الساحل، الجزائر، د.ط،2008،ص19، 20.

20. المرجع نفسه،ص20.

21. علي زغينة وآخرون،قراءة في أقصوصة خطوات في الثلوج"لزوليخا السعودي،مجلة المخبر،أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، ع.1، جامعة محمد خيضر بسكرة،(ينظر المراجع والهوامش)، ص 88.

(*) العنوان الصحيح للكتاب:"الصّوت النِّسائي في الأدب الجزائري المعاصر"،وليس"الأدب النِّسوي في الجزائر".

22. محمد الصالح خرفي، في عوالم النص دراسات نقدية،ص 119.

23. المرجع نفسه، ص122.

24. عايدة أديب بامية،تطور الأدب القصصي الجزائري 1925- 1967،ترجمة محمد صقر،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،د.ط،1982، ص318.

25. علي زغينة وآخرون،السّرد النِّسائي في الأدب الجزائري المعاصر،مجلة المخبر،ص 34،33.

26. عايدة أديب بامية،تطور الأدب القصصي الجزائري 1925- 1967،ص 318.

27. زينب الأعوج، السِّمات الواقعية للتجربة الشِّعرية في الجزائر، دار الحداثة، بيروت، ط.1، 1985،ص 50.

28. محمد الصالح خرفي، في عوالم النص دراسات نقدية،ص 120.

29. علي زغينة وآخرون،السّرد النِّسائي في الأدب الجزائري المعاصر،مجلة المخبر،ص34.

30. أحمد دوغان،الصّوت النِّسائي في الأدب الجزائري المعاصر،ص42.

31. فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة سيرة ذاتية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط.4، الإصدار الأول 1999، ص09

32. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج.9،ص184.

33. المرجع نفسه،ص186.

34. المرجع نفسه،ص187.